المحاضرة الثانية: فلسفة اللغة وعلوم اللغة الحديثة

مقدمة

تعتبر اللغة من أقدم الظواهر الانسانية التي حاول الإنسان فهمها عبر التاريخ. فمنذ النقاشات اليونانية القديمة، إلى جهود علماء وفلاسفة الاسلام، ووصولًا إلى التحليل اللغوي الحديث، ظلّ السؤال قائمًا: كيف تُعبّر اللغة عن الفكر؟ وكيف يُمكن للإنسان من خلالها أن يبني عالمًا من المعاني؟

سنحاول في هذه المحاضرة أن نقدم مقارنة بين فلسفة اللغة بوصفها حقلًا تأمليًا ينتمي إلى الفلسفة، وعلوم اللغة الحديثة بوصفها مجالًا وصفيًا وتحليليًا قائمًا على المنهج العلمي. وسوف اختصر بقدر الإمكان في هذه المحاضرة حتى لا يضيع الطالب في تحليلات متشعبة ليست من اختصاصنا ولكن قبل ذلك علينا أن نركز على الفهم وليس على الحفظ كما أذكر ذلك في المحاضرات الحضورية .

أولًا-مفهوم فلسفة اللغة: في البداية علينا أن نتعرف على فلسفة اللغة، وسوف نحاول تعريفها في هذه المحاضرة لربطها بمجال علوم اللغة الحديثة.

فلسفة اللغة هي فرع من الفلسفة يدرس اللغة والاسئلة التي تثيرها مثل العلاقة التي تربط بين اللغة والفكر وعلاقة اللغة بالعالم والثقافة، وعن أصل المعاني وكيف تتولد. ومن القضايا التي تحاول فلسفة اللغة البحث فيها هي :

قضية أصل اللغة: هذه القضية شغلت الفلاسفة منذ افلاطون وارسطو مرورا باللغويين العرب حيث كان السؤال الجوهري: هل كانت اللغة من نتاج محاكاة الطبيعة (مثلاً: الصوت يشبه الشيء)؟ أم أنها مجرد إشارات اتفاقية بين الناس؟ أم أنها كانت نتاج وحي إلهي؟

قضية اللغة بين الإنسان والحيوان: من الأسئلة التي تطرحها فلسفة اللغة: هل الحيوانات تمتلك لغة مشابهة للغة الإنسان؟ وما الذي يجعل اللغة البشرية قادرة على التعبير عن المفاهيم المجردة، كالزمن، والخيال؟ وهل التعلم اللغوي فطري في الإنسان فقط؟

-طبيعة اللغة (ما هي اللغة؟) : يطرح فيلسوف اللغة ذلك السؤال : ما هي اللغة؟ وهل كل حروف مترابطة فيما بينها تعتبر لغة، أم أن اللغة مجرد رموز. فكلمات: سماء، كتاب، نهر.... هي كلمات مفهومة بالنسبة لنا ولكن عندما نقول: ج ش م ر ن ج... فعندما نلاقي هذه الحروف مع بعضها: جشمرنج، لا نفهم منها شيئا. فهل كل الأصوات التي نسمعها لغة؟ أم أنّ للغة سمات معينة يجب أن نتفق عليها أولا.

-المعنى : من القضايا التي تعالجها فلسفة اللغة قضية ما هو المعنى؟ وكيف تكتسب الكلمات والجمل معناها؟ فهل المعنى قائم في الكلمة نفسها؟ أم في ذهن المتلقي؟ أم في الشيء؟ أم يأتي من حيث السياق الاجتماعي؟ مثال ذلك: عندما أقول شجرة: فهل المعنى موجود في حروف الشجرة – ش ج ر ة، أم في ذهن المتلقي، أم في الاستعمال الاجتماعي لكلمة شجرة .

-اللغة وعلاقة الفكر بالواقع: من القضايا التي تعالجها فلسفة اللغة: مسألة العلاقة بين الفكر والواقع. فهل تستطيع اللغة أن تنقل الواقع كما هو أم أنها تبقى عاجزة عن ذلك؟ أم أنها تحرفه وتشوه معانيه .

بعدما تطرقنا إلى مفهوم فلسفة اللغة دعونا ننتقل الآن إلى

ثانيًا: مفهوم علوم اللغة الحديثة

لا شك أننا عندما نتحدث عن علوم اللغة الحديثة فإننا نقصد مجموعة من التخصصات العلمية التي ظهرت وتطورت خصوصًا منذ القرن العشرين، وتهتم بدراسة اللغة دراسة علمية دقيقة من جوانبها المختلفة: من حيث بنيتها وتركيبها، وأصواتها، ومعانيها، وكيفية استعمالها في المجتمع. وقد ارتبط تطور هذه العلوم بأعمال عدد من اللغويين البارزين مثل فرديناند دوسوسير الذي يُعدّ من مؤسسي اللسانيات الحديثة .

وإذا أردنا تعريف علوم اللغة الحديثة فنقول بأنها تلك الدراسة العلمية للغة الإنسانية، من حيث بنيتها وأصواتها ودلالاتها ووظائفها، وكيفية استخدامها وتطورها عبر الزمن. وتهدف هذه العلوم إلى فهم اللغة بوصفها نظامًا منظمًا من القواعد والعلاقات، حيث يتم تحليل اللغة بالاعتماد على المناهج العلمية الحديثة، بعيدًا عن البعد التأملي الفلسفي. أي أنّ عالم اللغة يدرس اللغة كما يدرس العالم التجريبي الظاهرة الطبيعية، فإذا كان العالم التجريبي يبحث عن قوانين الظواهر من خلال الدراسة الموضوعية لها للوصول الى قوانين، كذلك عالم اللغويات يبحث في اللغة من حيث خصائصها ومميزاتها وقواعدها وقوانينها. ويبتعد عن النظرة الفلسفية الكلية.

أوإذا اردنا تعريفا آخر أكثر وضوحا فهي تلك " الدراسةُ العلميةُ للغات البشرية الطبيعية من خلال اللغات الخاصة بكلِّ قومٍ من الأقوام. ونعني بالصفة العلمية دراسةَ اللغة اعتمادًا على الملاحظة (OBSERVATION)والالتزام بالموضوعية .(OBJECTIVITÉ) وهذا يعني أن الموضوع الذي يعالجه علمُ اللغة هو اللغات البشرية عامة، بغضّ النظر عن الزمان والتاريخ والعُرف، وحتى الدين" (ناوي، 2015).

إذن علوم اللغة تدرس اللغة على نحو علمي وموضوعي بالاعتماد على الملاحظة والوصف الدقيق، تماما كما يدرس عالم الفيزياء الاجسام الصلبة على نحو موضوعي مستخلصا ملاحظاته الأولية. ولعل علوم اللغة الحديثة تريد الوصول إلى قوانين موضوعية وعامة تتحكم في اللغة البشرية بمختلف تنوعاتها. من أجل فهمها على نحو علمي بعيدا عن التصورات الميتافيزيقة

وتشمل علوم اللغة الحديثة مجالات مثل:

علم الأصوات :(PHONETICS) علم يدرس الأصوات اللغوية من حيث إنتاجها وخصائصها وكيفية سماعها. مثال: دراسة كيفية نطق حرف القاف في العربية، ومتى يكون مفخمًا أو مرققًا، وكيف يسمعه المستمع.

علم الصرف :(MORPHOLOGY) يدرس بنية الكلمة وكيف تتكوّن من جذور وأوزان وصيغ. مثال: كلمة "كاتب" تتكوّن من الجذر ك-ت-ب وصيغة الفاعل. هذا التحليل يساعد على فهم معنى الكلمة وتوليد كلمات جديدة مثل "مكتوب" و"كتابة". واستكتاب، وكاتب....

علم النحو :(SYNTAX) علم يدرس تركيب الجملة والقواعد التي تنظّم ترتيب الكلمات وعلاقتها بعضها ببعض. مثال: «قرأ الطفل الكتاب بصمت." إذا غيرنا الترتيب: "بصمت قرأ الطفل الكتاب." نجد أنّ التركيز ينتقل إلى كيفية القراءة (بصمت)، والأسلوب يصبح أكثر تأثيرًا.

التداولية :(PRAGMATICS) تدرس كيف يعتمد معنى الكلام على السياق والموقف وعلاقة المتحدث بالسامع. مثال: عبارة: الجو بارد، قد تعني: أغلق النافذة، أو أشعل المدفأة، حسب نية المتحدث والموقف.

علم اللغة الاجتماعي :(SOCIOLINGUISTICS) يدرس علاقة اللغة بالمجتمع، مثل اللهجات، والطبقات الاجتماعية، حيث نجد اختلاف استخدام المفردات من طبقة اجتماعية الى أخرى، ومن جنس الى آخر بل ومن منطقة إلى أخرى.

علم اللغة النفسي :(PSYCHOLINGUISTICS) يبحث في كيفية معالجة الدماغ للغة: من حيث فهمها، وإنتاجها، وتعلّمها. إذ يهتم هذا العلم بدراسة كيفية ارتباط العوامل اللغوية بالجوانب النفسية المختلفة. ويبحث في العمليات العقلية الأساسية التي تمكن الإنسان من إنتاج اللغة وفهمها، مثل قواعد النحو والمعجم المخزن في العقل. ويدرس هذا العلم: كيف يتعلم الأطفال اللغة في المراحل المبكرة من حياتهم.

اللسانيات التاريخية: تهتم بدراسة تطور اللغة وتغيرها عبر الزمن. حيث تتبع أصل الكلمات وتطورها التاريخي. مثال ذلك لدينا لفظة سيارة في الاستعمال اللغوي عند العرب: ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة يوسف: 19] وتفسير (وجاءت سيارة) كما وردت عند المفسرين :هم القوم المسافرون ، وسموا سيارة لأنهم يسيرون في الأرض. ففي اللغة العربية الكلاسيكية، "سيارة" مأخوذة من الجذر س-ي-ر، الذي يعني التحرك أو السير. في العصر الحديث، كلمة "سيارة" أصبحت تعني المركبة الآلية التي تعمل بالمحرك لنقل الأشخاص أو البضائع. أي أن الكلمة انتقلت من معنى عام "شيء يتحرك" إلى معنى محدد يرتبط بالتكنولوجيا الحديثة.

اكتساب اللغة: وهو علم يهتم بدراسة كيفية تعلم الإنسان اللغة الأم أو اللغة الثانية. فالطفل مثلا يتعلم "أمي" و"بابا" في مرحلة الطفولة، ثم يتعلم الجمل البسيطة تدريجيًا. (المحمودي، دون تاريخ)

علاقة فلسفة اللغة بعلوم اللغة الحديثة :

أما الآن فسنحاول أن نبحث في العلاقة الممكنة بين فلسفة اللغة وعلوم اللغة الحديثة .

من خصائص التفكير الفلسفي في اللغة أنه يقوم على النظرة الشمولية والكلية تطرح الفلسفة الأسئلة مثل: ما هي اللغة؟ وهل تعبر اللغة عن الفكر تماما؟ وهل اللغة تمثل وسيطا أمينا بين الفكر والعالم؟

في المقابل نجد أنّ علوم اللغة الحديثة تبتعد عن المعالجة التأملية للغة كما تفعل فلسفة اللغة بل تعالج اللغة من منظور وصفي وعلمي وتحليلي من حيث: النحو والصرف والدلالة وعلم النفس إلا أنّ هذا لا يعني أن العلاقة بينهما غير موجودة: فعالم اللغويات يستفيد من الفلسفة اللغوية ويؤسس عليها نظرياته العلمية حيث يستفيد منها في أخذ اطاره الفلسفي والمفاهيمي بينما تقدم العلوم اللغوية الأدوات والبيانات للتحقق من هذه المفاهيم أو لتوضيحها. فكل منهما يدرس المعنى والدلالة، ففلسفة اللغة: تبحث في طبيعة معنى الكلمة أو الجملة. أما علوم اللغة: تدرس كيفية تكوين هذا المعنى لغويًا.